

# كيف يكتب التاريخ؟<sup>(\*)</sup>

للدكتور حسن عثمان

مدرس التاريخ الحديث بكلية الآداب

— ١ —

—————

مقدمة

الشرق القريب — ومصر على وجه الخصوص — حديث العهد جداً بدراسة موضوع طريقة البحث التاريخي وكتابة التاريخ بالمعنى العلمي الحديث؛ وكلية الآداب بالقاهرة تكاد تبدأ هذا النوع من المدرس التي أوجب أن يتسع ويطبق عملياً في المستقبل القريب. وفي صيف ١٩٣٩ أصدر صديقي الدكتور

(\*) المقصود بهذه المقالة وما يليها عرض موجز لدراسة طريقة البحث التاريخي، بدون الخوض لفلسفة التاريخ ولتطور كتابته في الشرق والغرب؛ وقد أعود إلى ذلك في المستقبل. وإني أقدم بعض المراجع لمن يرغب للزبد فيما نحن بصدد الآن:

١ — أسدرستم: مصطلح التاريخ، بيروت، ١٩٣٩

٢ — ابن خلدون: المقدمة، القاهرة، ١٩٣٠

٣ — السخاوي: الأعلان بالتاريخ لمن ذم التاريخ، دمشق، ١٣٤٩ هـ

٤ — هرنشو، ترجمة وتعليق الأستاذ عبد الحميد العبادي: علم التاريخ، القاهرة، ١٩٣٧

٥ — الدكتور مصطفى زيادة: صناعة التاريخ في مصر، مجلة الثقافة، أمداد ٩٢، ١٠٠، ١٠٥، ١١١

٦ — Fling, F. M.: The Writing of History, An Introduction to Historical method. Yale, U. S. A., 1926

٧ — Oman, Sir Ch.: On The Writing of History, London, 1939

٨ — Freeman, E. A.: The Methods of Historical Study. London, 1886

٩ — Acton, Lord J. E.: Lectures on Modern History. London, 1930. (pp. 1-28; On the Study of History)

١٠ — Emerson, R. W.: Essays. Oxford, 1927

١١ — Langlois, Ch. V. & Seignobos, Ch.: Introduction aux Etudes Historiques. Paris, 1898 — English Trans. by G. R. Berry. London 1912

١٢ — Fauter, E.: Histoire de l'Historiographie Moderne. Paris, 1914

١٣ — Croce, B.: Teoria e Storia della Storiografia. Bari, 1920. English Trans. by D. Ainslie. London, 1921

١٤ — Croce, B.: Primi Saggi. Bari, 1927. (pp. 1-72; La Storia ridotta sotto il concetto generale dell'arte, e Illustrazioni e Discussioni)

١٥ — Croce, B.: Conversazioni Critiche, 4 vol. Bari, 1924-1932. (V. 1, pp. 153-224; Teoria della Storia, e Storia della Cultura) — (V. 4, pp. 115-163; Metodologia Storica)

١٦ — Pecchiai, P.: Manuale Pratico per gli Archivisti. Milano, 1928.

أسدرستم كتاب « مصطلح التاريخ » نتيجة خبرته في تدريس طريقة البحث التاريخي سنوات عديدة في جامعة بيروت الأمريكية. وأبتداءً من نوفمبر ١٩٤٠، أخذ الدكتور محمد مصطفى زيادة الأستاذ المساعد لتاريخ المصور الوسطى بكلية الآداب بالقاهرة ينشر سلسلة من المقالات بمجلة « الثقافة » عن صناعة التاريخ في مصر، قرأت أن أسام أيضاً — بعد أن فتحت لي « الرسالة » صدرها الرحيب — ينشر بعض مقالات عن هذا الموضوع، لاحتمال تقديمه بعض النفع للراغبين في دراسة وكتابة التاريخ. ولإعطاء القارئ فكرة عن طريقة كتابة المؤلفات التاريخية التي يتداولها؛ وللتاريخ لا يدرس عفواً، ولا يكتب اعتباطاً؛ وإنما يدرس لأغراض وقوائد، ولا بد لكتابته من استعداد خاص ودراسة وخبرة بطريقة البحث التاريخي

ولماذا نحاول الوصول إلى الحقيقة التاريخية؟ وما الذي نستفيد من دراسة التاريخ؟ لكي نصل إلى نتيجة معقولة،

فلنبحث أولاً فيما هو التاريخ؛ فكلمة تاريخ مستمدة من اليونانية.

بمعنى بحث واستقصاء حوادث الماضي، أي تسجيل حوادث

الإنسان منذ ظهر في الوجود، ومنذ بدأ يترك آثاره ومخلفاته

على الصخر وعلى الأرض، حتى الوقت الحاضر. ونحن إذا تصفحنا

أي كتاب عام عن تاريخ العالم، نجد أنه يتناول أوجه النشاط

الإنساني المتنوعة في الزمن الماضي، فيشرح حوادث الحروب

ومشاكل العماسة ومسائل الدين والفن والاقتصاد... وهو

يحاول بذلك أن يعطي صورة للمجتمع الإنساني في حالة حركة

مستمرة؛ وهي حركة لا تتكرر ولا تعيد نفسها على نفس المنوال

وفي نفس الظروف التي حدثت بها في فترة سابقة. نعم إنه قد تقع

حوادث متشابهة، ولكن تشابهها لا يمكن أن يكون مطلقاً؛

والإنسان يجب أن يعرف تاريخه ككائن اجتماعي، فينبغي أن يعرف

تاريخ تطوره وتاريخ آثاره في الزمن الماضي. وينبغي أن يدرس

للموامل التي أدت إلى حدوث الثورات والحروب، وما لابس

ذلك، وما خلفته من آثار؛ وأن يتبع مثلاً حركة الكشف

الجغرافي في أواخر القرن الخامس عشر، وما ترتب عليها من

تغيير طريق التجارة العالمي، وما ارتبط بذلك من هبوط سلطة

الماليك وجمهورية البندقية، وارتفاع شأن دول غرب أوروبا

كالبرتغال وهولندا وإنجلترا؛ وأن يدرس الأسباب التي أوجدت

نوعاً جديداً من الأدب أو الفن وما إلى ذلك من أوجه النشاط  
الإنساني ومقومات الحضارة

وحوادث التاريخ هي من صنع الإنسان في ظروف معينة ؛  
فينبغي أن يقرأ الإنسان وأن يدرس هذا التاريخ ؛ فالعلاقة  
وطيدة بين حياة الإنسان وبين القرون والعصر الماضي . ولا يمكن  
للإنسان أن يفهم نفسه وأن يفهم الحاضر بدون الماضي ؛ ومعرفة  
الماضي تكسبه خبرة السنين الطويلة ؛ والتأمل في الماضي يمد  
الإنسان عن شخصه ، فيرى ما لا يراه في نفسه بسهولة من  
مزاي وأخطاء الغير ؛ ويجعله ذلك أقدر على فهم نفسه وأقدر على  
حسن التصرف في الحاضر وفي المستقبل . ولكي ندرک أهمية  
معرفة الماضي ووجوب دراسة التاريخ ، فلنفرض أننا استطننا  
بوسيلة ما أن تقطع صلتنا بالماضي نهائياً ، وأن نحرق دور الكتب  
وأن ندمر كل آثار العمران الراهنة ، وأن ننسى أنفسنا ؛ فإذا  
تكون عليه حال الإنسان وحال الحضارة ؟ لا بد للإنسان في هذه  
الحالة من أن يسود ليبدأ من جديد ما كان قد بدأه منذ آلاف  
السنين من أوجه النشاط المختلفة لكي يصل إلى النقطة التي قطع  
فيها صلته بماضيه التاريخي ، أو إلى ما يقاربها . فاضى للشعوب  
وماضى الإنسان حافل بشقى الصور ، وهو عزيز عليه في كل  
أدواره ، سواء جهود المجد والقوة ، أو فترات الحزن والكوارث ؛  
والأقوام الذين لا ماضى لهم ليموا من شعوب الأرض المتحضرة .  
ومتى اقتنمنا بوجوب معرفة التاريخ والاستفادة منه ، فينبغي إذاً  
أن يكتب هذا التاريخ ، ويجب أن يخصص لكتابته بعض  
الناس من أصحاب الاستعداد

وليس كل من يحاول أن يكتب التاريخ يصبح مؤرخاً .  
فاللؤرخ يبغي أن تتحقق فيه الصفات اللازمة لكل من يشتغل  
بالعلم . ومن بين هذه الصفات أن يكون عمياً للعمل جليها صبوراً  
فلا تمنه وهورة البحث ولا للصاعب والشقات مهما كان نوعها  
من مواصلة البحث ، ولا توفقه ندرة المصادر ، ولا يصرفه عن  
عمله غموض الحقائق التاريخية واختلاطها ، فيقتضى للشمور  
والسنوات وهو يصل وبرحمن من يهد إلى آخر بحثاً عن الحقيقة .  
ويؤزم اللؤرخ أن تكون له ملكة النقد ، فلا يقبل أي كلام ،  
ولا يصدق أية وثيقة إلا بعد الدرس والاستقراء ، فيأخذ  
الصدق والحق وي طرح ما دون ذلك . واللؤرخ لا بد أن يكون

خلصاً أميناً شجاعاً ، فلا يكذب ولا يتحفل ولا يتناق ، ولا يخفي  
الحقائق التي قد لا يعرفها غيره في بعض الأحيان ، والتي قد  
لا ترضيه أو لا ترضى قومه ؛ فإنه لا رقيب عليه غير ضميره .  
واللؤرخ يبغي أن يكون يبدأ عن حب للشهرة ، وألا يحفل  
بالكعب والألقاب وبالجاه ؛ فإن الحقيقة التاريخية التي قد  
يكشف عنها تمس كل ذلك أو تزيد . وللؤرخ يبغي أن يكون  
قوى الشخصية ، فيستطيع أن يكون آراءه بناء على الواقع  
التاريخي ، ويعرضها علينا ، فنلس شخصيته خلال الصطور .  
واللؤرخ يبغي أن يكون صاحب إحساس وعاطفة وتصامح وخيال ؛  
فيدرك آراء الغير ونوازع الآخرين ، ويحس ما جاش بصدور  
الناس من شتى المواقف ، ويفهم الدوافع التي حركتهم في اتخاذ  
سلوك معين في الزمن الماضي ، ويشارك رجال الأمس موافقهم  
في ساعات التاريخ الفاصلة ، في فترات الانقلاب ، وفي جهود  
المقاومة العنيفة ، وفي ظروف النجاح والفشل ؛ لأن اللؤرخ  
المجيد يجد في كل هذه الحوادث سدى نفسه ، فتجعل فيه روح  
العلم والفن ، ويبعث التاريخ حياً ، ويحيا في التاريخ ، ويبعث للتاريخ  
وإذا قا هو للطريق الذي تنبئه لكتابة التاريخ ؟ وما هي  
طريقة البحث التاريخي ؟ طريقة البحث التاريخي عبارة عن  
الصلية والمراحل التي يصل خلالها الباحث إلى الحقيقة التاريخية ،  
بجمع الأصول والمصادر ، ودراستها وتقديدها ، واستخلاص  
الحقائق وتنظيمها وعرضها عرضاً تاريخياً معقولاً . إننا نلاحظ  
بأنه ليس للقصود بالحقيقة التاريخية إمكان الوصول إلى معلومات  
صحيحة على الإطلاق ؛ فالحقيقة المطلقة غير مستطاع الوصول إليها  
فما يتلق بالوقت الحاضر فضلاً عن الماضي ، لظروف مختلفة  
كالأفراض والمصالح ، أو لضياع الأمة وانطس الآثار .  
فالحقيقة التي يصل إليها الباحث في التاريخ صحيحة نسبياً ، وكلما  
زادت نسبة الصدق وكبر عنصر الحقيقة أصبح التاريخ تاريخاً  
بالمعنى الصحيح

وإن من يدرس العلوم الطبيعية يستطيع أن يشاهد بنفسه  
التغيرات والتحولات التي تصيب للمادة في معمل التجارب .  
إنما دارس التاريخ لا يستطيع أن يضع الحوادث أمامه في بوقه  
التجارب ؛ ولا بد له من وسائل أخرى تؤدي به إلى الفرض .  
فينبغي أن تتوفر فيه الأصول والمصادر التي يستخرج منها

متأثرين بروح العصر السائدة مثل حركة الانقلاب الصناعي أو نحو الديمقراطية في أوروبا؛ وإنما كل هذه الاختلافات ضرورية لأنها تقدم آراء ووجهات نظر مختلفة عن عصر معين؛ وهي تعطي للتاريخ الحركة والحياة، وتجعل البحث التاريخي مستمراً بنشاط. وعلى العكس، عدم الاختلاف بسبب الجود والركود. وثالثاً مطابقة التاريخ للواقع، وبمده عن التمييز والأهواء والنوازع المختلفة؛ فلا تعتبر تاريخاً صحيحاً الكتابة التي يطن فيها مسيحي على المسلمين في زمن الحروب الصليبية؛ أو العكس، فالكتابة التي نخدم غرضاً معيناً قد تعتبر تاريخاً لنوع من التفكير أو للنوازع الإنسانية، وإنما لا يمكن أن يعتبر ما جاء بها معبراً عن الحقيقة التاريخية بالنسبة لما تناولته من الموضوعات

ويعنى آخر يمكننا أن نقول إن قيمة التاريخ المكتوب تتحدد بناء على ملكات الباحث في التاريخ واستمداده، وبناء على مدى ثقافته، وعلى درجة إلمامه بطريقة البحث التاريخي. وكثير من كتب التاريخ تعتبر من أمتع ثمرات العقول، لنضوج عقلية المؤرخ، وخبرة الوطيدة، ونجاحه في إعطاء وحدة جامعة واضحة، بعكس الكثير من كتب التاريخ أيضاً التي يكتبها من لا يفهم التاريخ، ومن لا يملك ملكة النقد؛ فلا تزيد عن مجرد معلومات موضوعة بين دفتي كتاب. ومثل هذه الكتب غير جدية بأسمائها، وهي قد لا تماوى الورق التي طهت عليه.

(بجلى) حسن عثمان

الحقائق التاريخية. وهذه المصادر عبارة عن آثار ومخلفات الإنسان، وهي على أنواع مختلفة؛ فمن ذلك بقايا جسم الإنسان نفسه، وملابسه وطعامه ومساكنه وأسلحته وأدواته التي كان يستخدمها أثناء حياته، وقهقهة على الأحجار وكتبه المخطوطة والطبوعة، وصوره ورسومه وتماثيله ومبانيه، ولقنته وآدابه وقوانينه وطاداته وتقاليده. وآثار الإنسان كلها تحمل بين طياتها أسرار الحوادث وخفايا التاريخ؛ وهي تظل أبداً صامتة لا تبوح بأسرارها، إلى أن يتمكن الإنسان بالدراسة الطويلة، وبالتأمل العميق من أن يجعلها على النطق، وعلى التعبير عن أسرارها وخفاياها. ويبنى ألابقوتنا أن بعض آثار الإنسان تشيد للبلانة وللتعظيم، مثل أقواس النصر التي أقامها نابليون في بعض الولايات الألمانية، والتي لا تدل على أنه قد أصبح سيد أوروبا على الفوام، أو المدالية التي ضربها تذكراً لتزوله في إنجلترا، مع أن ذلك لم يحدث تاريخياً؛ فهذه المدالية ستبقى كذكرى لأمل لم يتحقق. أو تمثال الرجل الذي يقتل الأسد، مع أن ذلك لم يحدث إلا نادراً، والعكس هو الشائع. ولو استطاع الأسد أن يصنع تمثالاً لفتكه بالإنسان لصح الوضع. وأحياناً قد يمتد الباحث في التاريخ على وثائق مزيفة ومتحولة، سواء بقصد الدعاية أو المقامع عن فكرة معينة أو من أجل الشهرة أو للالتجارية والكسب. وعلى ذلك يبنى أن تدرس آثار الإنسان بروح النقد والحذر

وتحدد قيمة التاريخ المكتوب بناء على بعض الأسس العامة. فأولاً نوع المادة التي استقى منها الباحث معلوماته، هل هي أصول original sources أو هل هي نقوش قديمة مفاصرة وثبت صحة معلوماتها، أو هل هي وثائق ومراسلات سياسية مستخرجة من دور الأرشيف وثبت أنها غير مزيفة وأن معلوماتها صحيحة، أم أن المادة التي جمعها الباحث مستمدة من مجرد مراجع ثانوية ليست لها قيمة كبيرة. وثانياً قدرة الباحث على تقديم ما تحت يده من الأصول والصادر. ويختلف الباحثون في النقد وفي استخلاص الحقائق على حسب اختلافهم في الفهم والتفسير والاستنباط. وأحياناً يضع الباحثون في التاريخ افتراضات مختلفة لمحاولة فهم حركة تاريخية مهمة مثل حركة النهضة في إيطاليا أو الثورة الفرنسية. وأحياناً يختلف الباحثون في تقدير معنى الحوادث من ناحية السياسة أو الخلق. وأحياناً يكتبون

## الكف وأسرار النفس

للدكتور أحمد السنوسي  
إخصائى المللالت النفسية

مؤلف يبحث على ضوء العلم الحديث فيما هي فوائده علم الكف. الكف واللؤثرات النفسية. كيف تكشف خطوط الكف عن استمدادات اللراء التي تمكنه من النجاح في الحياة قيمة الاشتراك قبل الطبع ٣٠ قرشاً وبعده بعد الطبع ٥٠ قرشاً وقد مد أجل الاشتراك إلى ١٥ سبتمبر المقبل كرجبة للكثيرين، وترسل الاشتراكات إلى مكتبة الأنجلو ٣٣ ش قصر النيل، أو مجلة الرسالة ٨١ ش السلطان حسين، أو اللؤلف ٣٣ ش الملكة فريدة.